



لم يكن التصعيد الإعلامي الروسي على دول التحالف الداعم للثورة السورية مرتبطة بإسقاط المقاتلة الروسية التي كانت في مهمة قتالية علنية، سحقت فيها عدداً من التركمان السوريين، بعد أن أبادت وجرحت آلافاً من أشقاءهم العرب السوريين، واخترقت خلال العملية الحدود التركية أكثر من مرة، كما أظهرت أجهزة الرصد المعايدة.

فتبني البرافدا الصحفية الروسية العريقة في العهد السوفياتي الشيوعي - التي عادت بقوة في العهد القيصري للرئيس بوتين - أهمية استهداف الرياض وأنقرة والدوحة، في المخطط الدولي لمواجهة الإرهاب، كان له خط متصاعد سابق في أروقة السياسة والإعلام الروسي، حتى مع الزيارات المتبادلة واستمرارها.

وسواء اتجهت الأزمة للاحتواء أو التصعيد، لن تترك موسكو الانتقام والرد غير المعلن، ومنه قصف قوافل الإغاثة داخل سوريا عبر الطيران الروسي وتدميرها وقتل طواقمها، مع حريق هائل في طريق إعزاز سوريا.

ولم يجهل الأتراك هذا السيناريو، لكن ما بعد صفعة بوتين التي أغاظته كثيراً، فإن التسوية السياسية المرحلية هي مطلب ضرفي في مرحلة حساسة من الصراع الخطير الذي بدأ يبرز إستراتيجياً مع موسكو في سوريا ومجمل الشرق الإسلامي.

وقدימה كانت حرب الإمام شامل الداغستاني الذي قاد مقاومة شرعية وطنية بكل المعايير العالمية والإنسانية ضد روسيا القيصرية، هي إحدى أهم المحاولات الكبرى لإعاقة التوسيع والتتوحش الروسي، ولكن أحبطت مقاومته من خلال تسويات دولية وحصار.

وتحول هذا الاحتلال للقوقاز، بعد الثورة البلشفية وقبلها، إلى عمليات إبادة نازية غير مسبوقة، هجرت المسلمين التتر والقوقازيين من أراضيهم إلى سiberia، ليستشهد مئات الآلاف منهم، لتحقيق أطماع الروس بالتصفيه الديمغرافية للمناطق المحتلة.

فتاريخ الأطماء الروسية قديم، لكن العهد السوفياتي الأخير، ونشر رقعة المد الشيعي الذي يُخفي تحته أطماء اقتصادية وسياسية، والذي اختتم بتورط موسكو في حرب غزو أفغانستان، عاصر أكثر من مدرسة، أبرزها البيرسترويكا للرئيس غورباتشوف، والتي ضَمِّنت تفكيك الاتحاد السوفياتي والقبول بقواعد لعبة جديدة، سمحت لروسيا الاتحادية بالبقاء كدولة مركزية مؤثرة، وهو ما كان ذكاء من غورباتشوف، لكن البيرسترويكا الهاوية يتم اليوم استبدالها بالبوتينية الهاجحة.

فالأهم من إسقاط الطائرة، كان حجم ما كشفت عنه العملية، من توجه مركزي لنظام الرئيس بوتين للتورط الواسع في سوريا، وتحقيق مناطق تصفية ديمغرافية لمصلحة النظام، كما أن القصف الشرس على مناطق الجيش السوري الحر والمدنيين في مناطق الثورة، يُظهر هنا حدود هذا المخطط، وقد جاء متزامناً مع زيارة تاريخية لبوتين لطهران، أكدت على اندماج المحور الروسي الإيراني.

واستفادت موسكو من تفجيرات باريس وتحول الموقف الفرنسي ليتحدّى مع بقية أوروبا في دعم بقاء الأسد كأولوية، والثورة بذاتها مرفوضة من المجتمع الدولي الجديد، إذا كانت ستُلغي استبداد الأقليات الذي يخدم تل أبيب.

وقد يكون هناك خلاف في التفاصيل، كما في الفرق في التعبير عن هذا الهدف، عبر التأكيد على أن داعش (تنظيم الدولة الإسلامية) هي الأولية، وليس النظام، والجميع يعرف أن النظام هو من خلق بيئة داعش، كما خلقت أميركا بيئتها في العراق، وإن ظُجدت ترسانة غلو مذهبي سهلت زراعتها في الوسط السنّي.

والأخطر من ذلك، أن المشروع الروسي الذي يتقدم بتفويض من الغرب، وشراكة مع إيران، تُظهر تصريحات باحثيه الكبار وتلميحات مسؤوليه تصوراً أبعد للشراكة مع إيران، حيث تسعى البوتينية من جديد لوجود مختلف في الخليج عبر هذا التحالف، وأخطره التلاعب بملف الأقليات المذهبية وتعزيز التوتر معها من جديد.

لقد أدى التأخير في تنفيذ المنطقة الآمنة للشعب السوري، ومنع تعزيز المعارضة بأسلحة نوعية مضادة للطائرات، إثر التهديد الأميركي لحلفاء الثورة، إلى تفاقم الوضع بصورة كبيرة، والتأخير ثانية سيجعل كافة المعالجة أكبر بكثير، وتجاور سوريا واليمن.

ولذلك فإن وقف حسابات المحاور الغربية سواء موسكو وحليفها الإقليمي، أو واشنطن وحلفاؤها الغربيون وتل أبيب، يستدعي مباشرة سريعة للأولويات الثلاث: المنطقة الآمنة، والتسليح النوعي، وإعلان المشروع السياسي الانتقالي في مؤتمر الرياض القادم للمعارضة.

يستدعي الأمر بالضرورة نقل التحالف التركي السعودي من الموقف السياسي إلى غرفة العمليات الإستراتيجية العليا، وتفعيل خطوطها، ولن تستطيع البوتينية الجامحة هزيمة الثوار حين يُرتب هذا الدعم، لكن من المهم أيضاً عدم إعطائهما فرصة لزيادة المذايحة فوق مذايحتها ومذايحة طغاة إيران وأسدتها الحمير.

كل هذا لا يعني عدم حاجة أنقرة الضرورية للعمل على تحبيط هذا الجموح الروسي، فهذه خطة طوارئ لا يُتعاطى معها بالعاطفة ولا الاحتفالات الشعبية، ولكن بحسن إدارة المواجهة، وتفكيك توتركها، ثم هناك مساحة كبيرة لمواجهة غطرسة موسكو ببرامج مختلفة، فتركيا اليوم تحت حصار شرس ولا يوجد ظهير صلب، وموقف الناتو لا يمكن الاعتماد عليه، كما أن رسائل الغرب جاءت مواربة هشة.

ولدى حزب العدالة والتنمية ترسانة من صناعة تفكيك الأزمات، وهو يباشرها الآن مع ملاحظة أن الديمقراطية في تركيا التي ثبت رهانها في الفاتح من نوفمبر/تشرين الثاني لم تصل إلى مستوى الالتزام الوطني الداعي والأمني في بعض أوساط

المعارضة، حين تدهم الدولة تحديات كبيرة كأزمة بوتين، وهو ما يعزز ضرورة تحويل هذا الهجوم الروسي عن مساره دون تقديم تنازلات مبدئية له.

كما أن أي انسحاب من دعم الميدان السوري سيضر كثيرا ليس بالشعب السوري فحسب، بل بواقع الأمن القومي لدول الشرق الكبرى، وخاصة السعودية وتركيا، وتضامنها اليوم هو في ذاته قاعدة أمن قومي، على أساس توزيع المسؤوليات بينهما في ملف سوريا واليمن، فتتولى إدراهما ملفها المباشر وتدعيم الثانية الأخرى دعما مركزيا بشراكة قطرية، وهو أمرٌ واسع يمكن تنسيقه. ولكن المهم هو المبدأ والصمود في مواجهة الاندماج الروسي الإيراني المدعوم غربيا وإسرائيليا.

إن لعبة الغرب لاستنفاد جموح روسيا الجديدة بحرب مع الشرق الإسلامي هي أيضا مضررة بكل العمق الإسلامي الشرقي، وإنما تضبط المواجهة من خلال مصالح الشرق الإسلامي وأمنه القومي الجماعي، ويُحسن التخطيط لمواجهة الدب الروسي الغاضب، والمتحمس ليكون حلifa لعمامة ولـي الفقيه، لعلها تسقيه مباشرة ومناسبة من نفط الخليج.

إن التوسل للغرب وانتظار حلوله لن يثمر شيئا، وهذا لا يعني القطيعة معه ولا نبذ التواصل дипломاسي، لكن المقصود أن تكون قوة الشرق الإسلامي في موضع الفعل فيما يخص ملفاته، لا ردود الأفعال. فانتظار هذه المحاور بات يعني قرب تغيير خرائط المنطقة، وخسارة وجود لا حدود، وأول وقف للمشروع تنكيسه في سوريا، وإقامة البديل الوطني مباشرة في دمشق، حينها ستشرق شمس السلام للشرق.

الجزيرة نت

المصادر: